بعد عام على نهب (الطاقة الذرية) وبعثرة اليورانيوم في الهواء والانهار

شاهد حقيقي على ما حدث في قرية عشتار ونهب الطاقة الذرية!

عبد الكريم العبيدي

> **رائحة الهال**
>
> “في اعوام الحصار، تعلق أهالي قريتي بلعبة صدام والمفتشين، وكان سؤالهم الوحيد: هل تحصل ضربة صاروخية؟.. كنت اقول لهم لا لن تحصل، ولكن بعد اسابيع، يكون جوابي نعم، وتبدأ الضربة! قريتي تقع داخل منظمة الطاقة الذرية بين المفاعل النووي الذي قصفته اسرائيل بالطائرات في عام (1981)، ومقبرة النفايات المليئة ببراميل وحاويات اليورانيوم ذات الاشعاع العالي جداً.. ولذلك فان قلق اهالي القرية له ما يبرره فعلاً! في عام (2002) "كبر" سؤالهم، بات صعباً ومتشعباً.. عيونهم، كلا، دخان سكائرهم صار يسأل عن الحرب وعن أمريكا وعن مصير صدام، ومصيرهم!”

اسئلتهم تكثر وتتعدد، وجوابي الوحيد كان: ليس بعد.. انا اعرف الحرب، اشمها قبل الغراب، اراها في عيونهم، وفي تراب وجوههم.. قبل الحرب تصبح كل الوجوه متربة.. صدقوني، انا ابن الحروب!

في آخر عودة للمفتشين، شممت تلك الرائحة كانت رائحة الهال التي تسبق القعقعة.. ظللت أردد كثيراً: ليس بعد.. وما ان تحول الهال الى تراب قلت لهم: استعدوا..!

اهالي القرية حملوا حاجاتهم الثمينة وتركوا "كرفاناتهم" وعادوا الى جذورهم.. بضع عوائل فقط، نحن الذين فضلنا ان نموت في بيوتنا "لماذا اخترنا الموت أولاً؟".. ابتعنا بعض المواد الغذائية المجففة، وجهزنا البيوت بالغاز والنفط والفوانيس واللالات والبطاريات، وجمعنا الحطب وادمنا الراديوات.. تبدأ الحرب هكذا دائماً حتى لو كانت غزواً مفاجئاً من الحدود!

مسؤول الاعلام

في صبيحة (3/20) هرع اهالي القرية الى بيتي.. صالة الاستقبال تحولت الى قاعة مؤتمرات صحفية دائمة.. اول مرة تتمزق عذرية البيت، ويمحى "غيابها" عن القرية الصغيرة.. جمع من الرجال والنساء والاطفال يتساءلون بقلق عن مصيرهم بعد سماعهم دوي انفجارات صواريخ الضربة الاولى.. قالوا لي نحن لا نفقه بالسياسة ولا بالاخبار.. انت نافذتنا.. ومنذ ذلك الصباح الصاروخي ترقيت من جار "منغلق" الى مسؤول اعلام القرية!، فتحت التلفزيون، ووضعت مؤشر المذياع الاول على اذاعة البي بي سي، والثاني على اذاعة مونت كارلو بينما اقتصرت مهمة المذياع الصغير الثالثة على تصريحات "وزير العلوج"..

نهار الحرب الاول بدا باهتاً، فالحرب بدأت بدوي انفجارات صاروخية، اعقبها هدوء غامض، لا مقاتلات ولا قصفاً جوياً، والمضادات الارضية ظلت صامتة! رجال القرية اصلحوا الملاجئ القديمة وفرشوا ارضيتها، واضاؤها بالفوانيس واللالات. خصصوا اثنين منها للنساء والاطفال، وآخر للرجال.. وقرروا تشكيل فصيل للحراسة وعينوا ثلاث نقاط في مناطق مختلفة، واعفوني من مشاركتهم، فضلوا ان اتفرغ لمتابعة الاخبار، وتزويدهم بها على مدار الساعة!".

ولكن اين صدام؟ ولماذا تأخر عن إطلاق "نصره المحلى"؟.. "الفارس" لم يتأخر كثيراً، فبعد ساعات ظهر على شاشة التلفزيون، اطلق قصيدته المشهورة واختفى!.

في المساء، صار للحرب لسان آخر.. سمع دوي انفجارات هائلة وقصف جوي متواصل اما المضادات الارضية فقد اشعلت سماء القرية.. لقد بدأت الحرب..

العشاء الطارئ

نهارات القرية التي هلكت بدت قاسية.. الصباحات تتنفس خارج بيوتنا.. نراها من الملجأ، او من الشارع الوحيد داخل القرية.. لا شيء يحتفظ بمعناه، في الحروب تتهاوى كينونة المعاني، ويغدو كل شيء مباحاً.. خبر الحرب فقط هو المعنى، نسمع اخبارها ونراها وهي "ميتة".. تهلك الحرب من اول رصاصة، تمضي الى عمق بدائيتنا وتستقر، بينما نعتقد نحن البشر القدماء، الناجين من الطوفان والغرقى في قطرة ماء، أصرة حية بالخبر وليس بفاعله!.. الفاعل بلا معنى مثل كل شيء!

ولذلك بدأنا نأكل الخبر ونشربه، وقبل ان نختنق نتنفسه!.. أخبار، وأخبار ما بعد الاخبار، وشخوص وحوارات تتكرر كل نهار في دائرة مغلقة وبائسة.

هل هي نهاية؟.. كلا انها الحياة التي تصنعنا!

في الليل تتسلل النسوة الى الملاجئ مع اطفالهن.. يقمن مآدب العشاء الطارئة، ويثرثرن كثيراً قبل ان يخلدن الى النوم في ضوء لالة، داخل ملجأ قديم امتلأ بالدخان وبروائح الاجساد والخوف..

الرجال يجوبون الشارع الطويل ويدخنون كثيراً ويتحاورون، لا يريد احدهم ان يصمت.. فالصمت هو الرجوع الى الحرب التي "هلكت".. "دعنا نتحدث".. ما الاخبار؟.. ذلك المعنى المتبقي.. الخبر!

اهالي القرية ادركوا ذلك بعد ثلاثة ايام.. لاحظوا انني اقوم بمجهود اقسى من حراساتهم، ولذلك اتفقوا على تنظيم لقاءاتهم معي.. "لننقل من حفلات الشاي والحوارات.. دعوة يطل علينا بين حين وآخر، او ان نزوره صباحاً ومساءً فقط!..

في الليل هو معنا.. هو لا ينام!".

السطر الاول من الحرب

صياغة اخبار الحرب مهنة شاقة خاصة، وانت تخاطب عوائل محاصرة في قرية، ومختبئة في ملاجئ.. عوائل مرعوبة تريد ان يخسر صدام وامريكا الحرب معاً!.. وان تنتهي الحرب بسرعة، وان يخرجوا امنها جميعاً سالمين!.. امنيات متضاربة تجسد فعلاً معادلة العراق الملتبسة دائماً..

لم تكن الانباء سارة ولكنها لم تكن سيئة للغاية.. كان علي ان افرغ الخبر من اهواله شرط ان يبقى صادقاً، وان افرز الاخبار بحس الحرب وهاجس "الهزيمة" من دون وهم، وان اقرأها بطريقة تطمينية ولكنها جادة ومتماسكة.. اعرف ان وضعهم المفزع لا يتحمل ادنى خطأ، ومطالبهم الكثيرة لا يمكن تلبية نصفها.. إنهم عند حواف الحياة التي لا تريد ان تزول.. الحياة الهشة والمحافظة التي اعتادوا عليها وعقدوا معها صلحاً.. لقد كانوا احقاً في السطر الأول من الحرب، فبات من الصعب اقناعهم.. قلت لأحدهم: هذا الغزو يذكرني دائماً بغزو الهند لباكستان في مطلع سبعينيات القرن الماضي.. وزير الدفاع الهندي آنذاك، الذي حاوره الكاتب المصري محمد حسنين هيكل بعيد انتهاء الحرب قال: "حرصت على تفادي الدخول في اشتباكات فرعية، وتجنبت احتلال المدن الكبيرة خشية تهويل أخبار الحرب إعلامياً.. ولذلك أصدرت تعليمات دقيقة للقادة الميدانيين بتجاوزها، والانطلاق بأقصى سرعة نحو العاصمة.. الأميركان كرروا المشهد نفسه.. دخلوا من الكويت.. وتجنبوا احتلال المدن الجنوبية. خاصة البصرة.. ووضعوا سرايا تأمين خلف قواتهم المندفعة بسرعة صوب بغداد، تتقدمهم سرايا استطلاع صغيرة لتأمين تقدمهم..

الأميركان سلكوا الطرق الصحراوية والزراعية برغم صعوبتها. ولكنها سهلت لهم الاقتراب من بغداد بطريقة أفضل من احتلال المحافظات الواحدة تلو الأخرى كونها أهدافاً ساقطة ميدانياً ومن الممكن معالجتها بعد سقوط النظام..

أعلام أبو "العلوج" ظل يفخر "بصمود" أم قصر. ويتغنى "بعجز" القوات الغازية عن إسقاط قضاء حدودي صغير، وكرر مشهد طائرة منكاش كثيراً، "وصول بيبه وعلزم خليهما!".

أبو آمال

دوي الانفجار القريب الذي وقع داخل "الطاقة الذرية" لم يتبينه أهالي القرية.. أطلوا برؤوسهم من الملجأ ثم عادوا إلى حواراتهم.. إنه واحد من آلاف الانفجارات التي وقعت حولهم، لم يعرفوا بعد أنها أقرب جريمة على الهواء يرتكبها الأميركان "بطريق الخطأ"!؟

ولكن في "وقت الإحصاء". الذي يلي المجازر، بعدما يتلاشى الإحساس باللانهاية ويصبح كل شيء رقماً، يكون الذهاب الجماعي إلى مكان الجريمة أمراً لابد منه.. حدث ذلك بالفعل ولكن كيف؟

ذهب أهالي القرية إلى "آثار" الجريمة فعثروا على "أشلاء" سيارة محروقة.. الأشلاء تعني بأنها سيارة أصيبت بقذيفة فاحترقت، ثم تقدمت نحوها دبابة ودكتها بالأرض! تعاون أهل القرية على قلب "الخردة" وعثروا على جثتين متفحمتين تماماً..

تسعت الظنون "من يأتي إلى قريتنا في ظرف كهذا إن لم يكن منا؟!". وقال آخر:

برازيلي.. إنه "أبو آمال" ولكن من كان معه؟.. بعد عدة "حوارات عراقية" اتفق أهالي القرية على تفتيش بيت الضحية.. دخلوا إلى البيت وعثروا على نسخة من شهادة السياقة والسنوية وبعد مطابقتها برقم "الخردة" اتضح تماماً أن السيارة المحروقة هي سيارة (أبو آمال).. بعد "وقت الإحصاء"، يأتي "وقت التوثيق".. قصة مقتل أبو آمال) وابن جارنا وثقت وألقيتها بنفسي في مجلس العزاء الذي أقيم له في القرية فيما بعد... فمن اعترافات الجنود الأميركان وشهادات أفراد عائلة الضحية، اتضح أن الشهيد قام بزيارة تفقدية ثم عاد لبيته، وبرغم القصف المدفعي والصاروخي تمكن من الوصول إلى بوابة الطاقة الذرية التي وجدها خالية من "الحرس الزيتوني" ولكنه شاهد ابن جاره الذي يروم الدخول إليها لتفقد بيته أيضاً، فاصطحبه وتوجه نحو القرية.. لم يكن يعلم أن الأميركان شارفوا على دخول بغداد، وأنهم يراقبونه الآن.. الأميركان هم هكذا دائماً لا يريدون للآخر أن يعرف!.. إحدى دباباتهم أطلقت قذيفة باتجاه سيارته ثم تقدمت نحوها ودكتها بالأرض "ظناً منهم، أن الضحيتين من فدائيي صدام"!!

Oh... Sorry

حين دخل الجنود الأميركان إلى قريتي، كانت الحرب بالنسبة لي قد انتهت.. حدث ذلك قبل يومين من سقوط التمثال في 4/9... وقتها كانت حالة "العلوج" تكاد تنفجر من حمى التهديد والوعيد، في حين كان كل شيء يشير إلى

القرية وأحصوهم، ثم قاموا على الفور بمداهمة البيوت المغلقة فلم يعثروا على أحد ولم يصدقوا أنها قرية صغيرة... قلت للجنديين منهما تقدما نحو بيتي بصحبة جاري: إنكم ستقتلون رجال القرية كلهم قبل أن تنالوا من امرأة أو طفل.. أجابني أحدهم "No".. احنه صديقك" أي نحن أصدقاء، ثم طلب مني سيكارة فرفضت، ولكن جاري أخرج سيكارة وولعها له لتهدئة الموقف!

طلبت من النسوة أن يكففن عن البكاء، وأن لا يخفن أبداً.. الجنود الأميركان بادروا من جانبهم إلى التهدئة فتركوا النساء ينصرفن إلى البيوت واحتفظوا بالرجال فقط.. ثم دعوهم إلى الجلوس على الأرض، وجلسوا هم أيضاً قبالتهم، ولكنهم مدوا سيقانهم فصارت أحذيتهم أمام وجوه أهل القرية.. رفضت الجلوس وقلت للضابط الأميركي: تزعمون أنكم أصدقاء، فلماذا يضع جنودك أحذيتهم أمام وجوه الرجال؟ هذا تصرف خاطئ وغير مقبول. انتبه الضابط، وعرف جنوده سبب احتجاجي فصاحوا جميعاً "Oh!.. Sorry" ثم غيروا من جلستهم على الفور!

فرح أهل القرية وفخروا بي كثيراً، وأثنوا على تصرفي.. ثم طلب إمام مسجد القرية أداء صلاة العصر فوافق الضابط، وأدينا الصلاة جماعة أمام الجنود الأميركان ودباباتهم!

اللهم كذّب رؤياي!

مكث الجنود الأميركان في مقر الطاقة الذرية واتخذوها مأوى لهم. وبعد سقوط التمثال في 4/9 انسحب قسم كبير منهم وبقيت قوة صغيرة بحجم فصيل.

وادركوا أن الفصيل لا يمانع بدخولهم، فهرعوا هم وعوائلهم إلى دوائر الطاقة ومخازنها الرهيبة، وتكاثروا في ساعات قلائل حتى بلغ عددهم أكثر من ألف. حاول بعض أهالي القرية منعهم، وحدثت مشاجرات واشتباكات ولكن موجات السلب والنهب وصلت إلى أطوار متقدمة، اشتركت فيها الجميع من "داخل" الطاقة وخارجها واستمرت لأكثر من شهر، لتتحول تلك المؤسسة الفخمة بكل دوائرها ومختبراتها ومخازنها وقاعاتها إلى أنقاض!... لقد كنت هناك.. كنت شاهداً، وربما كنت أحلم. اللهم كذب رؤياي!؟

رأيت مخلوقات عجائبية تنهب الأجهزة والعدد والقاصات والأثاث، ثم تقتلع الأبواب والشبابيك، لتحيل دوائر ومؤسسات إلى أنقاض. ورأيت دكاترة وأساتذة كباراً يهرعون إلى دوائرهم البحثية المهمة ليفرغوها من كل أجهزتها الباهظة الثمن، ثم يظهروا في الفضائيات ليحذروا العالم من كارثة اليورانيوم!؟.. ورأيت مهندسين وفنيين وعمالاً ومستخدمين "يتعاونون اعلى الأثم والعدوان"، فيكتسون بنفوسهم المريضة وبحضيقتهم، جميع أقسام دوائرهم وبكل ما تحمله من "خفايا وأسرار" ثم يتطوعون للحراسة والدفاع عن أنقاض دوائرهم!.. ورأيت الآلاف من العجائز والنساء والأطفال يدفعون العربات المليئة بأجهزة الكومبيوتر والثلاجات والتلفزيونات وأجهزة الفحص المختبرية.. ثم رأيت المئات من الفنيين "المتطوعين" لسرقة الكيبلات والأسلاك الكهربائية والمولدات الضخمة.

لكن شر ما رأيت أولئك اللصوص "العتاة" من دكاترة وعمال وهم يعرضون "بضاعتنا" للبيع في أسواق الحواسم. في بغداد الجديدة والزعفرانية والباب الشرقي، ليعودوا بأثمانها الحرام أحدث السيارات ثم يعودون إلى دوائرهم، ليعرضوا على سلم الرواتب الجديدة!؟" اللهم كذب رؤياي!

العراق أولاً

بلغني أن اللصوص سرقوا أكثر من 200 حاوية وبرميل معبأة باليورانيوم.. قلت هذه كارثة! وعلى الفور بلغت بعض أهالي القرية من الاختصاصيين وحملة الشهادات العليا لحضور لقاء موسع في بيتي..

حضر الجميع، وفي ضوء الفانوس، جمعت جميع آرائهم ومخاوفهم عن هول الكارثة القادمة.. استغرق اللقاء أكثر من أربع ساعات، وبعد ذهابهم في نحو الواحدة بعد منتصف الليل، شرعت طوال الساعات المتبقية من تلك الليلة بكتابة التحقيق.. في الصباح حملته وتوجهت إلى فندق فلسطين مير ديان.. عرضته على قناة الجزيرة فاهتموا به كثيراً ثم عرضته على قناة "أخرى" فطلب مراسلها مبلغاً مالياً مقابل إذاعته!..

تحدثت في إذاعة مونت كارلو، وترجمت فقرات كثيرة منه وسلمت إلى قنوات وصحف أجنبية. واتفقت مع أكثر من قناة عربية وأجنبية لمصاحبتي إلى موقع الكارثة. وخلال ساعات حاولت إيصال خبر أكبر كارثة إشعاعية في تاريخ العراق إلى أبعد منطقة في العالم..

صحيفة محلية عريقة أهملت التحقيق!، ومراسل لإذاعة معروفة "تاجر" به كثيراً مع عدد كبير من المراسلين الأجانب معتقداً أنني في غفلة عما يفعل.

لم يؤلمني هذا فقط، كنت أريد أن يعرف العالم ما يحل بنا الآن..

كان ذلك هدفي الوحيد..

بعد أيام دعاني الدكتور صفاء صنكور لإلقاء التحقيق في ندوة للجنة المبادرة للحفاظ على الذاكرة العراقية وصيانة الموروث الحضاري للعراق التي عقدت في قاعة المسرح الوطني يوم 12 آيار.

حضرت الندوة، وألقيت التحقيق فأحدث ما يشبه القنبلة على حد تعبير أحد السادة مديري الندوة..

ثم طلب مني السيد فخري كريم أن ينشره في جريدة المدى، ونشر بالفعل.. وفي اليوم الثاني اتفقت مع عدد آخر من المراسلين العراقيين لزيارة موقع الطاقة وتمت أيضاً..

كانت كارثة بالفعل..

وقعت في أحياء مختلفة، يظن سكانها أننا نريد أن نأخذ منهم الحاويات بحجة أنها ملوثة!.. وعندما كنا نفتح أي حاوية نجدها مليئة بالخضراوات واللحوم..

لقد وصل التلوث إلى أبعد مما كنا نتصور.. مرة وضع أحد الاختصاصيين جهاز الفحص قرب "دشداشة" امرأة فصوت الجهاز بقوة!..

وفي حديقة بيت من تلك الأحياء مر سرب من البط، فوضع المهندس جهاز الفحص قرب إحداها فصرخ الجهاز أيضاً!!

الغريب أن صوت الجهاز يرتفع كثيراً خارج أي بيت ويقل في داخلها، وتبين فيما بعد أن العوائل التي نهبت الحاويات والبراميل بعثرت اليورانيوم في الهواء أو سكبته قرب أبواب بيوتها ثم استخدمتها!! وحين كنا نحاورهم ونبين لهم أن هذه الحاويات فيها مصادر مشعة ونفايات لها نصف عمر طويل يقدر بآلاف السنين، أكثر من 4500 سنة"، كانوا يحدقون في وجوهنا وكأنهم لم يسمعوا شيئاً!

كارثة غير معلنة

اليورانيوم بحالتيه السائلة أو البودرة يعد عنصراً ذا تأثير اشعاعي كبير، تنبعث منه أشعة "كاما" التي تنتقل عبر الرياح أو باللمس أو عن طريق الفم والاستنشاق أو في حالة التعامل معها بدون تحفظ، حيث يكون دخول الإشعاع خلال دقائق (العنصر نفسه أو مذاباً) ويستقر داخل الجسم ويبدأ بالتأثير المباشر.. ومن الممكن أن يتعرض جسم الإنسان أو غيره إلى الإشباع بطريقة غير مباشرة مثل الإشعاع المنبعث من الحاويات والبراميل الملوثة.. وعندما تبدأ أشعة "كاما" المنبعثة من المصدر بالعمل في اتجاهين على مستوى خلية في الجسم "وهذا ينطبق على جميع خلايا الجسم".. فالاتجاه الأول يكون في حالة إصابة سايتوبلازم الخلية وعندما يعمل الإشعاع على تحويل ماء الخلية كيميائياً من تركيبته الاعتيادية الطبيعية، وهو H_2O إلى مادة تدعى بيروكسيد الهيدروجين H_2O_2 والذي له فعل مسرطن (سرطاني) للجسم.. أما الاتجاه الثاني فيكون عند إصابة أشعة "كاما" نواة الخلية الحاوية على المادة الوراثية (الكروموسومات) الحاملة للصفات الوراثية التي تنتقل بأمانة من الآباء إلى الأبناء في الحالات الطبيعية عن طريق الجينات.. إلا أن ما يحصل عند تعرض هذه المواد الوراثية للإشعاع هو أن الإشعاع "المؤين" سيعمل على قطع جزء أو عدد كبير من الكروموسومات، أي حذف عدد من الجينات من موقعها الاعتيادي.

ومن ثم سيحصل فقدان لعدد من المعلومات الوراثية المنقولة إلى الأجيال اللاحقة، وهذا ما يدعى بالطفرة الوراثية..

علماً أن الغالبية من هذه الطفرات غير محمود العاقبة وهي على نوعين: الأول مميت.. والثاني غير مميت ولكنه يعمل على إحداث تشويهات خارجية مثل فقدان أحد الأطراف أو جزء منها، أو داخلية كتشويه لأحد الأعضاء الداخلية في الجسم، وهو ما يسبب الوفاة أيضاً!

No problem

الآن وقد مر عام على الاحتلال ونهب الطاقة الذرية وبعثرة اليورانيوم في الهواء والأنهار،

وما زالت هذه المنظمة عاطلة بفعل كارثة النهب التي جردتها من كل شيء..

في حين انتشرت الإصابة بمختلف الحالات السرطانية في جنوب بغداد، والتي ترفض الجهات الصحية الكشف عن معدلاتها "خدمة للمصلحة العامة"!

فقط أتذكر الآن أنني حاورت أحد الجنود الأميركان في داخل الطاقة الذرية وفي وقت نهبها وطلبت منه أن يوقف هذه المهزلة أو يحد منها على الأقل.

ولكنه لم يزد على أن كرر جملة واحدة فقط No problem!!

التويثة
كارثة نووية
GREENP